# الفصل الخامس

# أهم أعمال دولة المرابطين الحضارية

obeikandl.com

obeikandl.com

# المبحث الأول

## الآثار المعمارية في المغرب والأندلس

إن دولة المرابطين تركت آثاراً معمارية بارزة ظلت باقية على مر الدهور وكر العصور لترشد الأجيال المتعاقبة على سمو حضارة المرابطين المعمارية ومن أعظم هذه الآثار على الإطلاق:

### 1 – جامع القرويين:

من أهم المساجد الجامعة في بلاد المغرب وأكثرها شهرة لكونه جامعة إسلامية عريقة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، وكانت هذه الجامعة تقارع الأزهر الشريف في العلم وتخرج الدعاة والعلماء والفقهاء.

ولقد مر جامع القرويين بثلاثة أدوار: الأول عند تأسيسه سنة 254هـ/ 859م والثاني عند الزيادة فيه سنة 345هـ/ 956م.

والثالث عندما زيدت مساحته في عصر علي بن يوسف سنة 530هـ/ 1135م.

وتولى مشروع زيادة مسجد القرويين وتوسيعه القاضي أبو عبد الله محمد بن داود بسبب ضيق المسجد بالناس واضطرارهم للصلاة في الشوارع والأسواق في يوم الجمعة، وحرص على أن يكون المال من أوقاف مساجد المسلمين، وأشرف القاضي أبو عبد الله بنفسه على هذا المشروع الحضاري العظيم وكان تمام التوسعة عام 528هـ.

ولقد تخرجت من جامع القرويين على مر العصور وكر الدهور أفواج عديدة من فقهاء الأمة وعلماء الملة ودعاة الشريعة والمجاهدين الأبرار والقادة العظام، وكان لمسجد القرويين عند المرابطين مكانة عظيمة في نفوسهم.

وتذكر كتب التاريخ أن منبر جامع القرويين من أجمل منابر الإسلام، وتدل على روعة المغاربة في اختياراتهم الذوقية الرفيعة[1].

---

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(366).

obeikandl.com

### 2 – المسجد الجامع بتلمسان:

وكان مقرّاً لنشر علوم الإسلام وتربية المسلمين على معاني القرآن، وتم بناء هذا المسجد عام 530هـ في إمارة علي بن يوسف، وكانت هندسته المعمارية في غاية الجمال ودقة الإتقان، ورأى بعض المؤرخين أن البنية المعمارية لمسجد تلمسان فيها لمسات أندلسية وفنون معمارية قرطبية، بل بعضهم يرى أن عرفاء مسجد تلمسان قلدوا جامع قرطبة تقليداً مباشراً في لوحتي الرخام اللتين تكسوان إزاء واجهة المحراب بتلمسان، وكذلك سقف المسجد الخشبي شبيه بسطح مسجد قرطبة، وكذلك البلاط شبيهاً به أيضاً.

والذي يظهر أن دولة المرابطين انصهرت في بوتقتها حضارة المغاربة والأندلسيين والأفارقة فتجد تلك المعالم الحضارية المختلفة في كافة بقاع دولة المرابطين، ولا ينكر تأثير المعالم الحضارية المعمارية الأندلسية في كافة مدن الدولة.

### 3 – الآثار الحربية:

اهتم المرابطون بالحصون والقلاع ولذلك انتشرت في المدن والثغور.

وزاد اهتمامهم بالتحصينات العسكرية في زمن علي بن يوسف الذي أكثر من الأسوار والقلاع والحصون للدفاع عن دولته في المغرب من الحركات السياسية والثورات العدائية المناهضة لدولة المرابطين، وواصل الأمير علي اهتمامه بهذا الأمر كذلك في الأندلس.

ومن أروع آثار المرابطين الحضارية أسوار مراكش حيث بدأ الأمير علي بن يوسف في بناء سور المدينة 520هـ وكمل بناء السور عام 522هـ[1].

وانتشرت فكرة بناء الأسوار في الأندلس، وفرضت الدولة على رعاياها ضريبة تنفق على هذا الهدف الاستراتيجي الجهادي الدفاعي.

ومن أشهر الأسوار التي بنيت أو أعيد ترميمها في الأندلس، أسوار المرية وأسوار قرطبة التي امتازت بأبراجها المستطيلة الضخمة المتقاربة، وأسوار إشبيلية من جهة نهر الوادي الكبير، وبنى المرابطون في المناطق الوعرة حصوناً بالحجر، وشحنوها بالجنود والأقوات لكي تصمد للحصار مدة طويلة.

---

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(372).

وكان عدد جنود الحصون والقلاع ما يعادل 200 فارس و500 راكب في كل حصن.

ومن أشهر قلاع المرابطين في الأندلس قلعة منتقوط التي تقع على بساتين مرسية، ومن أشهر قلاع المرابطين في المغرب قلعة تاسغيموت التي تقع على بعد ثلاثة كيلومترات جنوب شرق مراكش وعلى بعد نحو عشرة كيلومترات شرق أغمات على سطح هضبة أطرافها ذات أجراف وعرة شديدة الانحراف يصعب على الغازين ارتقاؤها، وأسوارها تمتد على حافة الهضبة نفسها.

إن قلاع المرابطين وحصونهم تدل على أن فن العمارة في زمانهم تأثر بالغ التأثر بفن العمارة الأندلسي[1].

(1) انظر: تاريخ المغرب، ص(377).

obeikandl.com

# المبحث الثاني
# الحياة الأدبية والعلمية في دولة المرابطين

## 1 – الحركة الأدبية:

ازدهرت الحركة الأدبية في دولة المرابطين في عهد الأمير علي بن يوسف الذي اهتم بالشعر والأدب، وشجع الشعراء والأدباء فتوافدوا على بلاطه من أهل الأندلس، ومن الذين مدحوا الأمير علي بن يوسف الشاعر الكبير أبو العباس أحمد بن عبد الله القيسي المعروف بالأعمى التطيلي حيث قال:

يا علي العلاء في كل يوم ... وما أنت للملك بالسائس
يا ربيع البلاد يا غيمة العالم ... من بين مؤتل وموال
يا قريع الأيام عن كل مجد ... يا سليل الأذواء والأقيال
لك من تاشفين أو من أبي ... يعقوب ذكر مكارم وفعال[1]

وكان الشعراء يقصدون ولي عهد الدولة في زمن الأمير علي بن يوسف لمدح ابنه تاشفين، ومن أشهرهم الشاعر أبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف، كما حظي الشعراء في عصر علي بن يوسف بمكانة عظيمة لدى الأسرة الحاكمة وكبار القادة وعمال الدولة على الأقاليم المختلفة.

وكان الأمير عبد الله بن مزدلي موضع اهتمام الشعراء منهم ابن عطية الذي قال فيه:

ضاءت بنور إيابك الأيام ... واعتز تحت لوائك الإسلام[2]

ومن قبل مدح الشعراء والده الذي قال فيه أبو عامر بن أرقم:

أنت الأمير الذي للمجد همته ... وللمسالك يحميها وللدول
لمزدلي لواء كان يرفعه ... مناسب كالضحا والشمس في الحمل
يا أيها الملك المرهب صولته ... وارتجى غوثه في الحادث الجلل[3]

---

(1) الأعمى التطيلي، الديوان، ص(104).
(2) قلائد العقيان، لابن خاقان، ص(210).
(3) المصدر السابق، ص(133).

ووصل المديح إلى الفقهاء والعلماء لمكانتهم العالية في دولة المرابطين فهذا الأعمى التطيلي يمدح القاضي الفقيه ابن أحمد قاضي الجماعة بقوله:

إليك ابن حمدين وإن بعد المدى ... وأن غربت بي عنك إحدى المغارب
صبابة ود لم يكدر جمامة ... مرور الليالي وازدحام الشوائب
وذكر عساها أن تكون مهزة ... ترى على أعقابه كل شاغب
بأيه ما كان الهوى متقارباً ... وخطوى فيه ليس بالمتقارب[1]

ولا ننسى أن أعداء المرابطين من الشعراء قاموا بالتندر بالمرابطين، وبفقهاء دولتهم، وممن اشتهر بالهجاء والتندر في هذا العصر الشاعر أبو بكر يحيى بن سهل اليكي، الذي هجا المرابطين من ذلك قوله:

في كل من ربط اللثام دناءة ... ولو أنه يعلو على كيوان
ما الفخر عندهم سوى أن ينقلوا ... من بطن زانية لظهر حصان
المنتمون لحمير لكنهم ... وضعوا القرون مواضع التيجان
لا تطلبن مرابطاً ذا عفة ... واطلب شعاع النار في الغدران[2]

وازدهر في عصر المرابطين لون آخر من ألوان الشعر أعني الطبيعة، فقد شهد هذا العصر ظهور عدد كبير من الشعراء الذين نبغوا في هذا الفن الشعري، نذكر منهم ابن سارة الشنتريني، وابن الزقاق، وابن خفاجة البلنسي، وعبد الحق بن عطية، من ذلك قول الشنتريني الشاعر يصف البركة:

لله مسجورة في شكل ناظرة ... من الأزهر أهداب لها وطف
فيها سلاحف ألهاني تقمصها ... في مائها ولها من عرمض لخف
تنافر الشط إلا حين يحضرها ... برد الشتاء فتستدلي وتنصرف
كأنها حين يبديها تصرفها ... جيش النصارى على أكتافها الجحف[3]

وهذا أبو الحسن علي بن عطية بن الزقاق يصف فرساً أغر:

وأغر مصقول الأديم تخاله ... برقاً إذا جمع العتاق رهان

(1) الأعمى التطيلي، الديوان، ص(4 - 5).
(2) تاريخ المغرب، ص(386).
(3) قلائد العقبان، ص(271).

يطأ الثرى متبختراً فكأنه من لحظ من في متنه نشوان
فكأن بدر التم فوق سراته حسناً وبين جفونه كيوان[1]

وهذا أبو جعفر بن سلام المعافري يصف في شعره الثلج:

ولم أر مثل الثلج في حسن منظر تقر به عين وتشنعه نفس
فنار بلا نور يضي له سنا وقطر بلا ماء يقلبه اللمس
ترى الأرض منه في مثال زجاجة كأن كؤوس الماء يجمعه كأس[2]

وهذا شاعر آخر يصف لنا قوساً:

يا رب مائسة الأعطاف مخطفه إذا دنا نزعها فالعيش منتزح
ظلت ترن فظل النزع يعطفها كما ترنم نشوان به قزح
وقد تألف نصل السهم مندفعاً عنها قفل كوكب يرمي به قزح[3]

وهذا ابن خفاجة يصف الربيع وهو ممن عاصر الأمير علي بن يوسف:

أذن الغمام بديمة وعقار فأمزج لجينا منهما بنضار
وأربع على حكم الربيع بأجرع هزج الندامى مصفح الأطيار
وكمامة حدر الصباح قناعها عن صفحة تندى من الأزهار
في أبطح رضعت ثغور أقاحه أخلاف كل غمامة مدرار
نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا دور الندى ودارهم النوار
وقد ارتدى غصن النقى وتقلدت حلى الحباب سوالف الأنهار
فحللت حيث الماء صفحة ضاحك جذل وحيث الشطر بدء عذار
والروح تنفض بكرة لمم الربا والطل ينضج أوجه الأشجار[4]

لقد ازدهر الشعر والأدب في عصر الأمير علي بن يوسف ازدهاراً عظيماً شهدت بذلك قصائد شعراء المرابطين التي سجلت في ذاكرة التاريخ الخالدة.

وما قيل عن انحطاط الشعر والأدب في عصر المرابطين أكذوبة استشراقية بان زيفها أمام حقائق التاريخ التي لا تجامل ولا تعرف التحايل.

---

(1) المطرب من أشعار أهل المغرب، لابن دحية، ص(106).
(2)و(3) تاريخ المغرب، ص(388).
(4) ابن خفاجة، الديوان، ص(290 - 291).

ولا ننسى شيوع فن الموشحات والأزجال في عصر المرابطين، يقول ابن خلدون عن نشأة فن الموشحات: «وأما أهل الأندلس، فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً يسمونه بالموشح ينظمونه أسماطاً وأغصاناً يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد وتجاوزا في ذلك إلى الغاية واستطرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه»[1].

ومن أشهر وشاحي عصر المرابطين التطيلي، ومن موشحاته:

دمع مسفوح وضلوع حرار ماء ونار ما اجتمعا إلا لأمر كبار
بئس لعمري ما أراد العذول عمر قصير وعناء طويل
يا زفرات نطقت عن غليل ويا دموع قد أعانت مسيل[2]

وأما نشأة الزجل فقال ابن خلدون عنه: «أنه لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوا فناً سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة»[3].

ويعتبر أبو بكر بن قزمان القرطبي أول من ابتكر الزجل.

ومن أشهر أزجاله ما كان في مدح القاضي أحمد بن الحاج قوله:

وصل المظلوم لحق وانتصف غني ومسكين يحضر الإنكار والإقرار ويقع الفصل فالحين اجتمع فيه الثلاثة الورع والعلم والدين فيزول الحق إذا زال ويدوم الحق إذا دام[4].

هذه نبذة مختصرة عن بعض فنون الأدب التي ازدهرت وترعرعت في ظل دولة المرابطين.

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص (436).
(2) ابن خلدون، المقدمة، ص(441).
(3)و(4) الزجل في الأندلس، لعبد العزيز الأهواني، ص(201).

# المبحث الثالث

# من مشاهير علماء دولة المرابطين

كانت دولة المرابطين مبنية على أسس شرعية ولذلك اهتمت بالعلماء والفقهاء الذين لا دوام لدولة تريد أن تحكم بشرع الله بدونهم ولذلك كثر المحدثون والفقهاء، نذكر منهم:

## أولاً: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد (ت520هـ).

هو الإمام العلامة شيخ المالكية، قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد.

### أ - شيوخه:

من أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم أبو جعفر أحمد بن رزق، وأبو مروان بن سراج، ومحمد بن خيرة، ومحمد بن فرج الطلاعي، والحافظ أبو علي وأبو العباس ابن دلهات.

قال ابن بشكوال فيه: «كان فقيهاً عالماً، حافظاً للفقه مقدماً فيه على جميع أهل عصره، عارفاً بالفتوى، بصيراً بأقوال أئمة المالكية، نافذاً في علم الفرائض والأصول، من أهل الرياسة في العلم، والبراعة والفهم، مع الدين والفضل، والوقار والحلم، والسمت الحسن، والهدي الصالح، ومن تصانيفه كتاب «المقدمات» لأوائل كتب المدونة، وكتاب «البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل»، واختصار «المبسوطة»، واختصار «مشكل الآثار» للطحاوي، سمعنا عليه بعضها، وسار في القضاء بأحسن سيرة وأقوم طريقة، ثم استعفى منه، فأعفي، ونشر كتبه، وكان الناس يُعولون عليه ويلجؤون إليه، وكان حسن الخلق، سهل اللقاء، كثير النفع لخاصته جميل العشرة لهم، باراً بهم»[1].

ب - ومن أشهر فتاوى ابن رشد الجد ما أفتاه في شأن المعاهدين من النصارى

---

(1) سير أعلام النبلاء، (ج19/ 502).

في بلاد الأندلس بإبعادهم وتغريبهم لغدرهم بالمسلمين ومساعدتهم لألفونسو المحارب[1]، عاش هذا العالم الجليل سبعين عام ومات في ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة، وصلى عليه ابنه أبو القاسم، وروى عنه أبو الوليد بن الدباغ فقال: «كان أفقه أهل الأندلس، وصنف شرح العتبية، فبلغ فيه الغاية»[2].

## ثانياً: الشهيد القاضي الفقيه أبو علي الصدفي:

هو العالم الفقيه القاضي المحدث الحسين بن محمد بن سُكرة.

### أ - شيوخه:

روى عن أبي الوليد الباجي، ومحمد بن سعدون القروي، وحج سنة إحدى وثمانين، ودخل مصر على أبي إسحاق الحبّال، وقد منعه المستنصر العبيدي الرافضي من التحديث.

قال: فأول ما فاتحته الكلام على غير سؤالي، حذراً أن أكون مدسوساً عليه، حتى بسطته وأعلمته أنني من أهل الأندلس أريد الحج، فأجاز لي لفظاً، وامتنع من غير ذلك.

رحل للعراق، فسمع بالبصرة من جعفر بن محمد بن الفضل العباداني، وعبد الملك بن شغبة، وبالأنبار: الخطيب أبا الحسن علي بن محمد بن محمد الأقطع، وببغداد: علي بن الحسن بن قُريش بن الحسن صاحب ابن الصلت الأهوازي، وعاصم بن الحسن الأديب، وأبا عبد الله الحميدي.

وتفقَّه ببغداد على: أبي بكر الشاشي، وأخذ بالشام عن الفقيه نصر المقدسي، ورجع إلى بلاده في سنة تسعين بعلم كثير، وأسانيد شاهقة، واستوطن مُرسية، وجلس للإسماع بجامعها.

ورحل الناس إلْيه، وكان عالماً بالحديث وطرقه عارفاً بعلله ورجاله، بصيراً بالجرح والتعديل، مليح الخط، جيد الضبط، كثير الكتابة، حافظاً لمصنفات الحديث، ذاكراً لمتونها وأسانيدها، وكان قائماً على «الصحيحين» مع «جامع» أبي عيسى الترمذي، ولي قضاء مُرْسِيّة، ثم استعفي عنه فأعفي، وأقبل على نشر العلم

(1) تاريخ المغرب، ص(231).

(2) سير أعلام النبلاء (ج19/ 502).

وتأليفه، وكان صالحاً ديناً، عاملاً بعلمه، حليماً متواضعاً، وخرج القاضي عياض شيوخه وذكر أنه أخذ عن مائة وستين شيخاً، وأنه جالس نحو أربعين شيخاً من الصالحين والفضلاء وأنه أكره على القضاء فوليه، ثم اختفى حتى أعفي منه.

وتصدر في زمن علي بن يوسف في نشر الكتاب والسنة في مرسية بالأندلس وتوافد عليه الطلاب في كل حدب وصوب لينهلوا من علمه الجم الغزير ونفع الله به المسلمين في تلك الأقطار.

### ب - وفاته:

استشهد أبو علي الصدفي في وقعة قُتُنْدَة بثغر الأندلس، لست بقين من ربيع الأول، وهو من أبناء الستين، وكانت هذه الوقعة على المسلمين وكان عيش أبي علي من كسب بضاعة مع ثقات إخوانه[1].

انظر رحمك الله إلى هذا الطود الشامخ، والجبل الراسخ، والبحر الزاخر في حبه لطلب العلم ونشره، والدعوة إلى دينه والدفاع عنه، وحبه للجهاد والرباط، وحرصه على أكل الحلال، والتحري في لقمة العيش، والاستعلاء على الدنيا وزخارفها الكاذبة، ويا ترى كم نفس أحياها خبر استشهاد هذا العالم الفقيه الزاهد وكان - رحمه الله - يتذوق الشعر الذي فيه الذود عن سنة سيد المرسلين ويكتبه لتلاميذه منه ما قاله أبو عبد الله محمد بن علي الصوري لنفسه:

قل لمن أنكر الحديث وأضحى ... عائباً أهله ومن يدعيه
أبعلم تقول هذا؟ أين لي ... أم بجهل فالجهلُ خُلُقُ السفيه
أيُعاب الذين هم حفظوا الدّين ... من الترهات والتمويه؟
وإلى قولهم وما قد رَوَوْهُ ... راجعُ كلّ عالم وفقيه[2]

## ثالثاً: القاضي الفقيه أبو بكر بن العربي:

من أعظم فقهاء الأندلس في عصر المرابطين، هو القاضي أبو بكر، محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأندلسي، الإشبيلي، الإمام العلامة، المتبحر في العلوم.

---

(1) سير أعلام النبلاء (ج19/ 378).

(2) تاريخ الإسلام للذهبي، وفيات عام (511 - 520)، ص(369).

ولد عام 468هـ/ 1076م وتأدب ببلده، وقرأ القراءات، ثم رحل إلى مصر، والشام وبغداد ومكة، كان يأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه حتى أتقن الفقه، والأصول وقيد الحديث، واتسع في الرواية، وأتقن مسائل الخلاف، وتبحر في التفسير، وبرع في الأدب والشعر، وعاد إلى بلده إشبيلية بعلم كثير، لم يأت به أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق[1].

### أ - مكانته العلمية:

قال الشيخ صديق حسن خان عن ابن العربي: «إمام في الأصول والفروع، سمع ودرس الفقه والأصول وجلس للوعظ والتفسير، وصنف في غير فن، والتزم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى أوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله فأحسن الصبر على ذلك كله»[2].

قال عنه القاضي عياض، وهو ممن أخذوا عنه: «استقصى ببلده فنفع الله به أهلها لصرامته، وشدة نفوذ أحكامه، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة، وتؤثر عنه في قضائه أحكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه»[3].

قال عنه الشيخ أحمد بن محمد المقري: «علم الأعلام، الطاهر الأثواب، الباهر الأبواب، الذي أنسى ذكاء إياس، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل، وغدا في الإسلام أمضى من النصل»[4].

### ب - مؤلفاته:

للإمام القاضي أبي بكر بن العربي مؤلفات كثيرة لم يصلنا أغلبها، وقد قضى أربعين سنة في الإملاء والتدريس، وفي بث ما حصله من العلوم، وصنف رحمه الله في فنون متعددة منها: علوم القرآن، والحديث، و«مشكل القرآن والحديث»، وأصول الدين، وكتب الزهد، وأصول الفقه، وكتب الفقه، والجدل والخلاف، واللغة والنحو والتاريخ، ومن أشهر المؤلفات التي انتفع بها المسلمون «العواصم من القواصم»، «عارضة الأحوذي في شرح الترمذي»، «أحكام القرآن»، «القبس في شرح موطأ ابن

---

(1) و(2) و(3) انظر: أحكام القرآن في المقدمة.

(4) انظر: العواصم من القواصم، ص(13).

أنس»، «المسالك على موطأ مالك»، «الإنصاف في مسائل الخلاف»، «أعيان الأعيان»، «المحصول في أصول الفقه»، قانون التأويل»[1].

كان الإمام ابن العربي يصول ويجول بفقهه في بلاد الأندلس ينور طرق الظلام بعلمه، ويقضي على الشبهات بحججه، ويدمغ البدع المنتشرة بصبره وحلمه ودعوته، وكان من أعمدة دولة المرابطين في نشر الكتاب والسنة وتفقيه الناس وتربيتهم على مبادىء الإسلام وأخلاق الإيمان ودرجات الإحسان.

**وله فوائد علمية سجلها في كتبه وانتفع بها طلاب العلم من بعده منها:**

1 - قوله: قال علماء الحديث - ما من رجل يطلب الحديث إلا كان على وجهه نضرة، لقوله ﷺ: «**نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها**...».

قال: وهذا دعاء منه ﷺ لحملة علمه، لا بد بفضل الله تعالى من نيل بركته.

2 - ومنه قوله: كنت بمكة في سنة 489هـ وكنت أشرب من ماء زمزم كثيراً، وكلما شربته نويت العلم والإيمان، فنويت العلم والإيمان، ففتح الله لي ببركته في المقدار الذي يسره لي من العلم، ونسيت أن أشرب للعمل، ويا ليتني شربته لهما حتى يفتح الله لي فيهما، ولم يقدر فكن صفوي للعلم أكثر منه للعمل[2].

**ج - وفاته:**

أتاه أجله «بمغلية» قرب مدينة «فاس» في ربيع الأول سنة 543هـ، ودفن في فاس خارج باب المحروف على مسيرة يوم من فاس غرباً منها[3].

**رابعاً: القاضي الفقيه عياض:**

هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى اليحصبي السبتي، كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم وصنف التصانيف المفيدة، ولد في سبتة في عام 476هـ وتتلمذ على شيوخها ومن أشهرهم: القاضي أبو عبد الله بن عيسى، والخطيب أبو القاسم والفقيه

(1) انظر: ترجمته في كتاب العواصم من القواصم.
(2) انظر: العواصم من القواصم، ص(16).
(3) وفيات الأعيان (ج3/ 483).

إسحاق بن الفاسي، وإبراهيم بن جعفر اللواتي، وإبراهيم بن أحمد القيسي، وأبو بكر القاسم بن عبد الرحمٰن الكومي وغيرهم كثير[1].

### أ - رحلته إلى الأندلس:

كان خروجه للأندلس من بيته يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة 507هـ، وكان عمره إذ ذاك واحداً وثلاثين عاماً، ومن أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم في قرطبة أبو محمد عبد الرحمٰن بن محمد المشهور بابن عتاب القرطبي وقاضي الجماعة أبو عبد الله بن الحاج، والفقيه أبو جعفر بن رزق، وأبو مروان عبد الملك بن سراج وأبو الوليد بن رشد الجد، وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن سعد الأندلسي الإشبيلي وأبو علي الصدفي.

وتحصل على علوم غزيرة وتصدر للتعليم والتدريس، وعين في القضاء، ونبغ فيه واشتهر بعمله وعبادته وجوده، وكانت مؤلفات القاضي عياض أكثرها في الحديث الشريف، ثم في التاريخ والطبقات ثم في الفقه، ثم في القرآن[2].

### ب - مؤلفاته:

1 - «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى»، وموضوعه في السيرة النبوية والعقيدة والأصول والتفسير والحديث.

2 - «مشارق الأنوار على صحيح الآثار»، وموضوعه تفسير غريب الحديث في الصحاح الثلاثة: «موطأ مالك» و«صحيحي البخاري ومسلم»، فضبط أسماء الرجال والألفاظ ونبَّه على مواضع الأوهام والتصحيفات.

وفي هذا الكتاب قال الشاعر:

مشارق أنوار تبدت بسبتة ومن عجب كون المشارق بالمغرب

فأجابه آخر بقوله:

وما شرف الأوطان إلا رجالها وإلا فلا فضل لُترب على تُرْب

---

(1) المغرب والأندلس، د. مصطفى الشكعة، ص(124).

(2) المغرب والأندلس، د. مصطفى الشكعة، ص(125 - 136).

3 - كتاب «الإكمال»، أكمل به كتاب «المعلم بفوائد كتاب مسلم» لشيخه المازري الفقيه المالكي المحدث المتوفي سنة 536هـ.

4 - كتاب «منهاج العوارف إلى روح المعارف» وهو في شرح مشكل الحديث.

5 - كتاب «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع» في مصطلح الحديث.

6 - كتاب «بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد».

7 - كتاب «التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة» في الفقه وجمع في هذا الكتاب فوائد وغرائب.

8 - كتاب «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» في العقيدة.

9 - كتاب «الخطب» يحتوي على خمسين خطبة من خطب الجمع.

10 - كتاب «جامع التاريخ» في التاريخ والطبقات.

11 - كتاب «تاريخ سبتة» وهو مسودة.

12 - «ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك».

13 - الغنية وذكر فيه شيوخه وترجم لهم.

14 - «المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان».

15 - «غنية الكتاب وبغية الطالب»، في الأدب والإنشاء وغيرها من المخطوطات والكتب التي تدل على سمو منزلته وسلامة منهجه.

لقد برع القاضي عياض في أمور عدة منها: القضاء والفقه والحديث واللغة والأدب، وكان شاعراً مجيداً وله موهبة رائعة تدل على قدرته على نظم الشعر، ومن أبرع ما قاله القاضي عياض من القصائد تلك التي أنشدها، وهو يودع قرطبة في عام 508هـ، بعد أن تلقى العلم فيها من شيوخها، وتوطدت له صلات بأهلها ومودة وصداقة وأخوة أكيدة، فقال مودعاً المدينة الأندلسية ذات التاريخ العريق:

أقول وقد جدَّ ارتحالي وغرَّدت ... حُداتي وَزُمَّتْ للفراق ركائبي

وقد غمضتْ من كثرة الدمع مقلتي ... وصارت هواء من فؤاد ترائبي

ولم تبقَ إلا وقفة يستحثها ... وداعي للأحباب لا للحبائب

رعى الله جيراناً بقرطبة العُلا ... وسقى رُباها بالعهاد السواكب

وحيًّا زماناً بينهم قد ألفته ... طليق المُحيَّا مُسْتلان الجوانب
أإخواننا بالله فيها تذكروا ... معهاد جار أو مودة صاحب
غدوْتُ بهم من برهم واحتفائهم ... كأني في أهلي وبين أقاربي[1]

ومن أشعاره الإخوانية التي وصف فيها ليلة جمعت من أصحابه كل ذي مكانة وفضل وجاه:

سَمَحَ الزمانُ بليلةٍ ... غراءَ جامعةِ السرورْ
أجنتْ أكفُّ جُناتِها ... قَطفَ الأماني والحبور
ما فضَّ طينُ ختامها ... فيما تقدم من دهور
دارت على فلك السعود ... بمثل أشباه البدور
ما إن ترى إلا أميراً ... حاز إرثاً عن أمير
تَخذُوا القلوب أسرة ... وثَوَوْا بها عوض السرير
فعليهم وقف العلاءُ ... وإن تُدووِلَت الأمور[2]

لقد اهتم الأمير علي بن يوسف بالقاضي عياض لما كان شابّاً وظهر ذكاؤه وانتشر صيته، فأكرمته دولة المرابطين وهيأت له الأجواء للمزيد من التحصيل والتفقه في الدين.

وكان القاضي عياض لا يحب كثرة الأسفار والارتحال، ويلاحظ المتتبع لسيرته وحياته أنه كان قليل الارتحال بالقياس إلى معاصريه وأترابه من العلماء والفقهاء والمحدثين، وكانت له نظرية عجيبة في ذم السفر وبيان أضراره وعيوبه نظمه في الشعر، وخالفه كثير من العلماء في نظرته المتفردة وإليك الأبيات التي ذكرها في ذم السفر:

تقعَّد عن الأسفار إن كنت طالباً ... نجاةً ففي الأسفار سبعُ عوائق
تشوفُ إخوانٍ وفقدُ أحبةٍ ... وأعظمها يا صاح سُكنى الفنادق
وكثرةُ إيحاشٍ وقلةُ مؤنسٍ ... وتبذيرُ أموالٍ وخيفةُ سارق

(1) المغرب والأندلس، د. مصطفى الشكعة، ص(136 - 146).
(2) المغرب والأندلس، د. مصطفى الشكعة، ص(149).

فقدْ كان ذا دهراً تقادم عهده وأعقبه دهر شديدُ المضايق
فهذا مقالي والسلام كما بدا وجرِّب ففي التجريب علمُ الحقائق[1]

وهذه فلسفة غريبة في الأسفار أخالف القاضي عياض -رحمه الله- فيها إلا أنني أقول إن الإنسان في أسفاره العلمية أو التجارية عندما يقضي مآربه عليه أن ينتقل إلى غيرها حتى يحقق أهدافه ويرجع إلى وطنه وقومه غانماً سالماً مفيداً لأهله وشعبه وقد ذكر العلماء في الأسفار فوائد فقال الشافعي رحمه الله:

تغرب عن الأوطان في طلب العلى وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائد
تفرج همٍّ واكتسابُ معيشةٍ وعلمٌ وآداب وصحبةُ ماجدِ[2]

وقال الإمام الشافعي في الاغتراب أيضاً:

ما في المقام الذي عَقْلٍ وذي أدبِ من راحةٍ فَدَعِ الأوطان واغتربِ
سافر تجد عوضاً عمن تفارقه وانصبْ فإن لذيذَ العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجرِ لم يطبِ
والأسدُ لولا فراقُ الأرض ما افترست والسهمُ لولا فِراقُ القوسِ لم يُصب
والشمسُ لو وقفت في الفلك دائمة لملها الناسُ من عُجم ومن عرب[3]

وكان ممن عاصر القاضي عياض العلامة الشيخ يعلى أبو جبل وكان له رأي يخالف رأي القاضي عياض في السفر نظمه في هذه الأبيات:

سافر لتكسب في الأسفار فائدة فرُبَّ فائدةٍ تُلقى مع السفر
ولا تُقم بمكان لا تُصيبُ به نصحاً ولو كنت بين الظل والشجر
فإن «موسى» كليم الله أعوزهُ علم تكسَّبَهُ في صحبة الخضر[4]

ومن شعره في الأشواق ما نظمه من أبيات واصفاً فيها شوقه وحنينه لزيارة المدينة المنورة فقال:

يا دار خير المرسلين ومن به هدى الأنام وخُصَّ بالآياتِ

(1) انظر: النبوغ المغربي، عبد الله كنون، (ج3/ 131).
(2) ديوان الشافعي، ص(57).
(3) ديوان الشافعي، ص(34).
(4) انظر: المغرب والأندلس، ص(150).

عندي لأجلك لوعة وصبابة ... وتشوقٌ متوقدُ الجمرات
وعليَّ عهدٌ إن ملأت محاجري ... من تلكم الجدران والعرصات
لأعفرنَّ مصونَ شيبي بينها ... من كثرة التقبيل والرَّشقات
لولا العوادي والأعادي زرتها ... أبداً ولو سعيا على الوجنات[1]
لكن سأهدي من جميل تحية ... لقطين تلك الدار والحُجُراتِ
أذكى من لمسك المتفق نفحةً ... تغشاه بالآصال والبُكرات
وتخصه بزواكي الصلوات ... ونَوامي التسليم والبركات[2]

وله أبيات يصف فيها نفسه وشوقه إلى وطنه قالها في مدينة «داي» ببلاد المغرب سنة 541هـ وكان قد ناهز الخامسة والستين من العمر، وكان مرغماً على البقاء فيها ممنوعاً للرجوع إلى بلاده في زمن دولة الموحدين.

يعلم الله وأنا أمر على هذه الأبيات التي فجرت الأحزان في نفسي، وألهبت مشاعري وهيجت الأشواق إلى مدينتي «بنغازي» ومنطقتي «الحدائق» وذكرتني ببلادي العزيزة ليبيا ما تملكت دموع الشوق إلى مسقط رأسي التي طالت مدة غيابي عليه أكثر من أربعة عشر عاماً، نصفها مسجوناً في بلادي والنصف الآخر قضيتها متنقلاً بين البلدان، ولم تكن تهمتي التي كلفتني هذه العقوبة القاسية التي أحتسبها عند الله إلا أن رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً ﷺ.

إن أبيات القاضي عياض في غربته أضفت علي وأنا أترجم حياته مسحة من الحزن ولوعة من الأسى وإحساساً بالحنين إلى أهلي ووطني، وأحبتي وإخواني، فقال القاضي - رحمه الله - وهو يحاور حمامة مرت به:

أقمرية الأدواح بالله طارحِي ... أخا شجي بالنوح أو بغناء
فقد أرقتني من هديلك رنة ... تهيج من شوقي ومن بُرحائي
لعلك مثلي يا حمامُ فإنني ... غريب «بداي» قد بُليتَ بداءِ
فكم من فلاةٍ بين «داي» و«سبتة» ... وخَرق بعيد الخافقين قواءِ
تصفقُ فيه للرياح خوافقٌ ... كما ضعْضعتني زفرةُ الصعداء

(1) المغرب والأندلس، ص(150).
(2) أزهار الرياض، (ج4/ 180).

يذكرني سحُّ المياه بأرضها دموعاً أريقتْ يوم بنتُ ورائي
ويعجبني في سهلها وحزونها خَمائل أشجارٍ ترف لِرائي
لعلَّ الذي كان التفرق حكمهُ سيجمع منَّا الشمل بعد تنائي[1]

## ج - عياض والقضاة:

رجع القاضي عياض إلى سبتة بعد أن أتم ما أراد من علوم من الأندلس وكان دخوله لمدينته الحبيبة إلى نفسه عام (508هـ) وفرح أهل سبتة بابنهم البار، وتصدر للتعليم والتدريس بعد أن امتحنه علماء مدينة سبتة في الفقه المالكي، وأصبح من أهل مجلس الشورى، وكان ذلك في الثانية والثلاثين من عمره أو يزيد قليلاً، وكانت تلك المرحلة سبباً في إعداده ليتسنم سدة القضاء الشريفة الرفيعة في سبتة[2].

ولما كان عياض في التاسعة والثلاثين من عمره تولَّى القضاء، وكان ذلك عام 515هـ، وظل متربعاً على كرسي القضاء في بلدة سبتة ستة عشر عاماً فسار فيها أحسن سيرة وكان محمود الطريقة مشكور الحالة، أقام جميع الحدود على ضروبها، واختلاف أنواعها، وبنى الزيادة الغربية في جامع سبتة التي كمل بها جماله وترك في بلده آثاراً محمودة[3].

ويبدو أن بعض الأمراء لم يعجبهم حزم وعدالة القاضي عياض، كما خافوا من كثرة أتباعه وانتشار صيته ومحبة الناس له، فلذلك عزموا على نقله إلى غرناطة ولم يذكروا سبباً مقنعاً، مما جعل الفقيه أبو الحسن بن هارون المالقي يمدح القاضي عياضاً في أبيات سجلتها ذاكرة التاريخ:

ظلموا عياضاً وهو يَحْلُمُ عنهم والظلمُ بين العالمين قديمُ
جعلوا مكانَ الراءِ عيناً في اسمه كي يكتموه فإنه معلوم
لولاه ما فاحتْ بطائحُ سبتة والروض حول فنائِها معدوم[4]

وانتقل القاضي عياض إلى غرناطة ممتثلاً لأمر الأمير فهب أهل غرناطة لاستقباله

(1) انظر: المغرب والأندلس، ص(150).
(2) انظر: المغرب والأندلس، ص(150).
(3) انظر: أزهار الرياض، (ج3/ 10).
(4) انظر: المغرب والأندلس، ص(162).

كما يستقبل الفاتحون، وبالله إنه الحق فاتح للعقول ومنور للقلوب ومطهر للنفوس بعلمه العزيز، وخلقه المتواضع وسيرته العطرة.

وسار في الناس سيرة العدل ورفع الظلم، وإحقاق الحقوق دون خوف من أمير أو وزير، ونشط وضاق به ذرعاً من تعرضت مصالحه للخطر، ولا يستطيع الحصول عليها إلا بالظلم، وأسفرت مكايد الأشرار في غرناطة عن عزل القاضي النزيه في عام 532هـ، ورجع إلى بلده ليكون بعيداً عن القضاء قريباً لطلاب العلم وحلقاته وقصده الناس وانتفع به العباد ونشر نور الكتاب والسنة في البلاد، واستمر على تلك الحالة الدعوية سبع سنين، وفي أواخر دولة المرابطين عام 539هـ دعي ليتولى قضاء سبتة من جديد، وهو في الثالثة والستين من عمره، وكان شيخاً جليلاً وعالماً عظيماً، وقاضياً حكيماً، وأباً رحيماً، فابتهج الناس لعودته وسار فيهم سابق سيرته، وما مضت شهور قليلة حتى سقطت دولة المرابطين على يد دولة الموحدين البدعية فاضطر القاضي الجليل إلى خوض الحياة السياسية والحربية[1].

### د - معارك السياسة والحرب:

إن ظهور دولة الموحدين على يد المبتدع الكبير محمد بن تومرت كانت من أسباب سقوط دولة المرابطين، فطبيعي جداً أن يخوض حرباً ضد دولة الموحدين، وتولى قيادة جيوش الموحدين عبد المؤمن بن علي الذي استطاع بجيشه أن يحتل مدن المغرب مثل فاس ومراكش وغيرها.

ورأى القاضي عياض أن المصلحة العليا لمدينة سبتة وأهلها أن يبايع عبد المؤمن حفاظاً على الأعراض والأموال، وتجنيب المدينة من الدمار الشامل وقبل أمير الموحدين تلك البيعة الاضطرارية، وما أن قام محمد بن هود بثورته على الموحدين حتى استجاب أهل سبتة لذلك بزعامة القاضي عياض، وقام السبتيون بقتل عامل الموحدين وأصحابه، وسار القاضي عياض إلى يحيى بن علي المسوفي المعروف بابن غانية في قرطبة وبايعه، وكان متمسكاً بدعوة المرابطين وطلب منه أن يعين والياً على سبتة فبعث معه يحيى بن أبي بكر الصحراوي وأصبحت بذلك مدينة سبتة خارجة عن دولة الموحدين وعادت إلى حكم المرابطين.

---

(1) المصدر السابق نفسه.

إلا أن جيوش الموحدين استطاعت إخضاع مدينة سبتة وأهلها وأعادوا البيعة من جديد للموحدين الذين قبلوا ذلك واشترطوا إبعاد القاضي عياض عن مدينته إلى مراكش، وقيل: تدلا إلى أن توفاه الله تعالى.

إن موقف القاضي عياض كان منسجماً مع عقيدته وعلمه ودعوته في محاربته للموحدين الذين اعتقدوا عصمة إمامهم محمد بن توترت وغير ذلك من العقائد البدعية التي سنفصلها بإذن الله تعالى عند كلامنا عن الموحدين.

إن القاضي عياض ليس من أهل السنَّة وحسب، ولكنه فقيه أهل السنة آنذاك على الإطلاق، وهو كذلك يرى وجوب الوقوف أمام دعوة ابن تومرت، وينبغي التخلص منها متى حانت أول فرصة، . وإن يكن قد بايع فالبيعة آنذاك كانت حفاظاً على سلامة بلدته وأهلها. أما وقد لاحت الفرصة بخروج بعض المدن على سلطان الموحدين القائم على بدعة الإمامة المعصومة، أما وقد جرت الريح بما لا تشتهي السفن فإن من العقل الاستسلام ثم المبايعة وله حكم المضطر في ذلك.

وإن سلطان الموحدين عبد المؤمن كان على مقدرة عجيبة من الدهاء والمكر، ولذلك رأى لمصلحة دولته أن يضع الفقهاء والعلماء الذين يشك في ولائهم له في مراكش، ومنعهم من العودة إلى بلادهم، أو يضعهم في مدن أخرى ليخدموا مخططات الدولة الناشئة[1].

## هـ - وفاة القاضي عياض:

توفي رحمه الله في منفاه بعيداً عن وطنه في عام 544هـ ودفن في مراكش[2] فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان على ما قدمه للإسلام.

هؤلاء بعض العلماء الذين كان لهم سبق ومكانة في دولة المرابطين وانتفع الناس بعلمهم وفقههم، ترجمت لهم ترجمة متواضعة، كما برز في علوم الفقه، والحديث كثير من العلماء والمحدثين في عصر دولة المرابطين منهم: أبو الحسن علي بن عبد الرحمٰن المعروف بابن أبي حقون وله مختصر في أصول الفقه سماه «بالمقتضب الأشفى من أصول المستصفى» ومنهم أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن

(1) سير أعلام النبلاء، (ج20/ 127).
(2) المصدر السابق نفسه.

خلف بن أحمد بن عمر اللخمي، ويعرف بالرشاطي، وكانت له عناية بالحديث والرجال والرواة والتواريخ، وله كتاب سماه «اقتباس الأنوار، والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار»، ومنهم أيضاً أبو عبد الله بن حسين بن محمد بن حسين بن أحمد بن محمد الأنصاري، وأبو جعفر بن عبد الصمد بن أبي عبيدة بن محمد الخزرجي، وقد ألف كتاباً في أحكام الرسول ﷺ سماه «آفاق الشموس وأعلاق النفوس»، وكتاباً آخر سماه «مقاطع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان»، وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمٰن بن عطية المحاربي وله كتاب يُسمى «بالوجيز في التفسير»، وكذلك برز في عصر علي بن يوسف من الفقهاء وعلماء الحديث: أبو عبد الله محمد بن حسين بن أحمد الأنصاري المعروف بابن أبي أحد عشر، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد بن يربوع بن سليمان، وأبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف بن عمر المعروف بابن الدباغ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة.

obeikandl.com

# المبحث الرابع

# علوم اللغة في زمن المرابطين

ونبغ في علوم اللغة في عصر علي بن يوسف عدد كبير من العلماء البارزين في النحو وعلوم اللغة نذكر منهم: أبا محمد، عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي ت521هـ، وكان حجة في علمه عالماً متبحراً في النحو وعلوم اللغة، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرؤون عليه، ومن تواليفه كتاب «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب» وكتاب «التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة» وكتاب آخر في شرح الموطأ وبالإضافة إلى ذلك كان شاعراً مطبوعاً فمن نظمه قوله:

أخو العلم حي خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم
وذو جهل ميت وهو ماشٍ على الثرى يظن من الأحياء وهو عديم

ومن أئمة اللغويين وأعلامهم في عصر علي بن يوسف، أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري النحوي، وقد كان من أهل المعرفة بالآداب واللغة، متقدماً في علم القراءات، وأبو محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الله النحوي المعروف بابن اللجاش، وكان عالماً متبحراً في النحو، وأبو العباس أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله المعروف بالتدميري ت555هـ ومن تواليفه «نظم القرطين وضم أشعار السقطين» وجمع فيه أشعار «الكامل» للمبرد و«النوادر» لأبي علي البغدادي، كما له كتاب «التوطئة في العربية» وله شرح على كتاب الفصيح لثعلب، وله في شرح أبيات جمل الزجاجي كتاب سماه «شفاء الصدور»، وكتاب «الفوائد والفرائد»، ومنهم أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن هشام بن غزوان الفري، وكان من أهل المعرفة بالنحو واللغة والعروض، وله أرجوزة مزدوجة في قراءة نافع وثانية في قراءة ابن كثير، ومن تواليفه كتاب «فوائد الإفصاح عن شواهد الإيضاح»[1].

---

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(398، 399، 400).

# المبحث الخامس

## علوم التاريخ والجغرافيا في عصر المرابطين

ظهر في عصر المرابطين عدد كبير من أعلام الرواية والكتابة التاريخية نذكر في مقدمتهم: أبو زكريا بن يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المعروف بابن الصيرفي كان من أعلام عصر علي بن يوسف في البلاغة والأدب والتاريخ، كتب بغرناطة عن الأمير تاشفين بن علي بن يوسف أيام أن كان والياً على الأندلس، وألف في تاريخ الأندلس في العصر المرابطي كتاباً سماه «الأنوار الجليلة في تاريخ الدولة المرابطية»، وكتاباً آخر سماه «قصص الأنباء وسياسة الرؤساء» وهما مؤلفان لم يصلا إلينا مع الأسف، ولم يصل إلينا من مؤلفاته الأول سوى شذور نقلها المتأخرون مثل ابن الخطيب وخاصة روايته عن غزوة ألفونسو المحارب للأندلس سنة 519هـ/ 1125م، وقد توفي ابن الصيرفي بغرناطة في سنة 570هـ، وهناك أيضاً أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ت542هـ صاحب كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» وهذا الكتاب موسوعة أدبية تاريخية يتضمن تراث القرن الخامس الهجري 1110م، وأبو عبد الله محمد بن خلف بن الحسن بن إسماعيل الصدفي، ويعرف بابن علقمة، وهو من أهل مدينة بلنسية سماه «البيان الواضح في الملم الفادح» وتوفي ابن علقمة عام 509هـ/ 1114م، وأبو طالب عبد الجبار عبد الله بن أحمد بن أصبغ، وله كتاب يسمى «عيون الإمامة ونواظر السياسة»، وأبو عامر محمد بن محمد بن أحمد بن عامر البلوي المعروف بالسالمي، وقد ألف كتاباً في التاريخ سماه «درر القلائد وغرر الفوائد»، وأبو نصر الفتح بن محمد القيسي الإشبيلي، والمعروف بالفتح بن خاقان، ومن تواليفه كتاب «قلائد العقيان في محاسن الأعيان»، وكتاب مطمع الأنفس ومسرح التأنس» وكتاب «رواية المحاسن وغاية المحاسن» وأبو القاسم خلف بن عبد الملك ويعرف بابن بشكوال، وكان من أعلام المؤرخين في عصر المرابطين، وأشهر تواليفه كتابه المعروف «بالصلة»، الذي جعله تتمة لكتاب ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس، ومن تواليفه أيضاً كتاب «الغوامض والمبهمات» في اثني عشر جزءاً وكتاب «المحاسن

والفضائل في معرفة العلماء الأفاضل» في أحد وعشرين جزءاً وقد توفي ابن بشكوال في رمضان 578هـ.

وفي مجال الجغرافية نبغ عدد من كبار جغرافيي الأندلس والمغرب عصر المرابطين نذكر منهم: الشريف أبو عبد الله محمد الإدريسي، صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وقد ألف الإدريسي لرجار الثاني صاحب صقلية، ولذا يعرف هذا الكتاب في كتب الجغرافية العربية باسم الرجاري.

ومن جغرافيي عصر المرابطين عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجاري صاحب كتاب «المسهب في غرائب المغرب» وقد اتخذ بنو سعيد كتابه أساساً لكتابهم المعروف باسم «المغرب في حلى المغرب»[1].

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(401، 402، 403).

obeikandl.com

# المبحث السادس

# علوم الطب في عصر المرابطين

تقدَّمت العلوم الطبية والصيدلانية في عصر المرابطين تقدماً يشهد له الأسماء والأعلام التي تألقت في حضارة الأندلس والمغرب، وأشهرها ابن زهر وهو اسم طبيب أندلسي من أعظم أطباء الإسلام، ممن تركوا بصماتهم واضحة في تاريخ الحضارة الإنسانية جمعاء، وينتسب أبو مروان عبد الملك بن زهر إلى أسرة أندلسية لمعت في ميدان الطب والعلوم الطبيعية والكيميائية عميدها الأكبر هو أبو مروان عبد الملك ابن الفقيه محمد بن مروان بن الأزهر الأيادي الإشبيلي، وكان والده الفقيه محمد بن مروان من جلة الفقهاء المتميزين في علم الحديث في إشبيلية، وقد رحل أبو مروان في شبابه إلى المشرق وسمع في القيروان ومصر، وتتلمذ على أيدي علماء المشرق في الطب، ورجع إلى الأندلس، وأصبح من أشهر علماء الطب فيها وتوفي في إشبيلية، وورثة في علم الطب ابنه أبو العلاء الذي تبوأ مكانة عظيمة في دولة المرابطين، ومن تواليفه «الخواص» وكتاب «الأدوية المفردة» وكتاب «الإيضاح بشواهد الافتضاح» في الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن إسحاق في كتاب المدخل إلى الطب، وكتاب «النكت الطبية» وكتاب «الطرر» ومقالة في تركيب الأدوية، وتوفي أبو العلاء في قرطبة 525هـ وحمل إلى إشبيلية ودفن بها، وأمر الأمير علي بن يوسف بجمع كتبه ونسخها، وتم ذلك عام 526هـ وورث ابنه أبو مروان من والده صناعة علوم الطب، ونبغ في هذا المجال، ولم يكن في زمانه من يماثله أو ينافسه، وكان له حظوة لدى الأمراء المرابطين، فقد صنف للأمير أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين كتاباً سماه «الاقتصاد في صلاح الأجساد»، ومن تواليفه أيضاً كتاب «التيسير في المداواة والتدبير» وقد ألفه القاضي أبو الوليد بن رشد وهذا الكتاب يعد من أعظم مراجع الطب في العصور الوسطى، وله أيضاً كتاب «الأغذية»، ومقالة في علل الكلى، ورسالة في علتي البرص والبهق، وتوفي هذا العالم في عام 557هـ في إشبيلية.

ومن الأطباء الذين برعوا في عصر علي بن يوسف: أبو عامر محمد بن أحمد ابن عامر البلوي، وله في الطب كتاب سماه «الشفا» وأبو الحسن علي بن عبد الرحمٰن بن سعيد السعدي وغيرهم.

ومما يؤكد اهتمام دولة المرابطين بالطب وجود منصب يعرف برئيس الصناعة الطبية وهو منصب هام يقابل ما نطلق عليه اليوم اسم وزير الصحة، إذ كان فيما يبدو المسؤول الأول أمام الأمير في صناعة الطب وما يتعلق بها من الأدوية والعقاقير[1].

**أمراء دولة المرابطين:**

1 - أبو بكر عمر اللمتوني: 448 - 480هـ/ 1056 - 1078م.

2 - يوسف بن تاشفين: 480 - 500هـ/ 1078 - 1106م.

3 - علي بن يوسف بن تاشفين: 500 - 537هـ/ 1106 - 1142م.

4 - تاشفين بن علي: 537 - 540هـ/ 1142 - 1145م.

5 - إبراهيم بن تاشفين بن علي: 540هـ - 1145م.

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(407، 408، 409).

obeikandl.com

# المبحث السابع

## أسباب سقوط دولة المرابطين

1 - ظهور روح الدعة والانغماس في الملذات والشهوات عند حكام المرابطين وأمرائهم في أواخر عصر علي بن يوسف، وكان للمجتمع الأندلسي تأثير لا ينكر في قادة وأمراء وحكام دولة المرابطين الذين استجابوا لنزوات شهواتهم وانغمسوا في الحياة الدنيا، فتحقق قول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16][1].

يقول سيد قطب رحمه الله: «والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذي يجدون المال، ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة والراحة، وبالسيادة حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأرض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا مَنْ يَضْرِبُ على أيديهم عاثوا في الأرض فساداً، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب العليا إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتلك وتطوى صفحتها..».

والآية تقرر سنة الله هذه في إهلاك من انغمس في الشهوات وأسرف في الملذات وتحلل من القيم والأخلاق ولازم الفسق والانحلال والفساد.

2 - ظهور السفور والاختلاط بين النساء والرجال، وبدأت دولة المرابطين في آخر عهد الأمير علي بن يوسف تفقد طهرها وصفاءها الذي اتصف به جيلهم الأول، مما جعل الرعية المسلمة تتذمر من هذا الانحراف والفساد وتستجيب لدعوة محمد بن تومرت الذي أظهر نفسه للناس بالزاهد والناسك والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

3 - انحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثي الذي سبب نزاعاً عنيفاً

---

(1) تاريخ المغرب والأندلس، ص(407، 408، 409).

على منصب ولاية العهد بين أولاد علي بن يوسف، كما تطلع مجموعة من الأمراء إلى منصب الأمير علي ونازعوه في سلطانه مما سبب تمزقاً داخلياً، فقدت الدولة المرابطية وحدتها الأولى، وكثرت الجيوب الداخلية في كيان الدولة، وتفجرت توراث عنيفة في قرطبة، وفي فاس وغيرها ساهمت في إضعاف الوحدة السياسية وإسقاط هيبة الدولة المرابطية.

4 - الضيق الفكري الذي أصاب فقهاء المرابطين وحجرهم على أفكار الناس ومحاولة إلزامهم بفروع مذهب الإمام مالك وحده، وعملوا على منع بقية المذاهب السنة تعصباً لمذهبهم، وكان لفقهاء المالكية نفوذ كبير مما جعلهم يوسعون تعصبهم وتحجرهم الفكري.

ويرى بعض المؤرخين أن التعصب الأعمى عند فقهاء المرابطين في زمن الأمير علي بن يوسف كان السبب الأول في سقوط دولة المرابطين[1]، لقد أسهم فقهاء المالكية في دولة المرابطين بقسط وافر في تذمر الرعايا، وإضعاف شأن الإمارة، لقد استغل بعض الفقهاء نفوذهم من أجل جمع المال وبناء الدور، وامتلاك الأرض، وعاشوا حياة البذخ والرفاهية المفرطة، وكان ذلك سبباً في إيجاد ردة فعل عنيفة عند أفراد المجتمع المرابطي، وانبرى الشعراء في تصوير حال الفقهاء في تلك الفترة، قال أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني:

أهل الرياء لبستم ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتم شهب الدواب بأشهب وبأصبغ صبغت لكم في العالم[2].

5 - ومن أهم العوامل التي أسقطت دولة المرابطين: فقدها لكثير من قياداتها وعلمائها العظام أمثال سير بن أبي بكر، ومحمد بن مزدلي ومحمد بن فاطمة ومحمد بن الحاج وأبي إسحاق بن دانية، وأبي بكر بن واسينو فمن لم يستشهد من كبار رجال الدولة أدركه الموت الطبيعي، ولم يستطع ذلك الجيل أن يغرس المبادىء والقيم التي حملها في الجيل الذي بعده، فاختلفت قدرات الجيل الذي بعدهم

(1) الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، ص(98).
(2) انظر: سقوط دولة الموحدين، للدكتور مراجع الغناي، ص(31).

واستعداداتهم، وهذا درس مهم لأبناء الحركات الإسلامية في أهمية توريث التجارب والخبرات المتنوعة والمتعددة للأجيال المتلاحقة[1].

6 - ومن أهم العوامل التي أنهكت دولة المرابطين، أنها مرت بأزمة اقتصادية حادة، نتيجة لانحباس المطر عدة سنوات، وحلول الجفاف والقحط بالأندلس والمغرب، وزاد من حدة الأزمة الاقتصادية أن أسراب الجراد هاجمت ما بقي من الأخضر على وجه البلاد مما هيأ الظروف لانتشار مختلف الأوبئة بين كثير من السكان ووقعت هذه الأزمة في الفترة الواقعة ما بين أعوام 524هـ - 530م[2].

7 - ومن أهم الأسباب الرئيسية في زوال دولة المرابطين - في نظري - صدامها المسلح مع جيوش الموحدين، ورأيت أن أفرد له مبحثاً مستقلاً[3] ويكون ذلك عند دراسة دولة الموحدين.

(1) انظر: سقوط دولة الموحدين، للدكتور مراجع الغناي، ص(31).
(2) نفس المصدر السابق.
(3) نفس المصدر السابق.

obeikandl.com

# نتائج البحث

1 - إن في معظم القبائل في العالم الإسلامي رجال لهم عقول راجحة وبعد نظر وتقدير للأمور، وفي أغلب الأحيان يتولى أمر القبيلة أرجح الناس عقلاً وأكثرهم جوداً، وأعظمهم شجاعة، وأخلصهم لأهله وعشيرته، وشخصية الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي خير دليل على ما قلت، ولذلك من الدروس العميقة من هذا البحث هو أهمية دور زعماء القبائل في دعوة قبائلهم وعشائرهم، وإيجاد الحماية اللازمة للدعاة إلى الله في أواسط القبائل، فعلى الحركات الإسلامية العاملة أن توثق علاقاتها مع هذه الشريحة من المجتمع، وتحرص على دعوتها للإسلام لتنصهر في الدعوة الربانية التي تبذل جهدها لتحكيم شرع الله تعالى.

2 - إن أبا عمران الفاسي العالم الرباني والفقيه المالكي سيد الفقهاء في القيروان في زمانه يعتبر هو واضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين، وكان - رحمه الله - يميز بين العمل العلني في الدعوة وفقهها وتعليم الناس، وبين العمل السري لإقامة دولة سنية، وكان رحمه الله على اتصال بفقهاء أهل السنة في مدن وقرى الشمال الإفريقي، ولذلك لما تعرف أبو عمران الفاسي على الأمير الصنهاجي يحيى بن إبراهيم، وعلم بأحوال قومه وحاجتهم لمنهج الإسلام ومن يربيهم على ذلك، اتصل بأخيه الشيخ وجاج بن زلوا اللمطي فقيه المالكية بالسوس الأقصى، وكان فقيهاً صالحاً يقيم بمدينة ملكوس، وأطلعه على المهمة التي جاء من أجلها الأمير يحيى، فاختار لهذه المهمة تلميذه الذكي الفقيه العابد الألمعي عبد الله بن ياسين الجزولي صاحب العلوم المتنوعة والشخصية الجذابة التي تجري في دمائها صفات الدعاة المتعددة، وسار رحمه الله وفق خطة محكمة بصبر وحلم وشجاعة في قبائل الملثمين.

4 - كانت مرحلة التعريف التي نفَّذها الإمام عبد الله بن ياسين في قبائل جزولة ولمتونة وغيرها من أصعب المراحل، وكادت تودي بحياته واستطاع أن يحارب مظاهر الشرك والجهل في مجتمع صنهاجة الصحراوي، وأن يتحمل الكثير من أجل تعليمهم الإسلام وأركان الإيمان ومقامات الإحسان.

5 - وفي مرحلة التكوين اختار الإمام عبد الله بن ياسين رباطه على مصب نهر السنغال بعيداً عن نفوذ الأمراء وأصحاب الجاه والأموال، وشكلت نخبة صفوية ألزمها بلوائح تنظيمية ومبادىء سلوكية واجتهد في تربيتها وشكل منها مجلس الشورى.

وفي مرحلة التنفيذ بعد أن أصحبت للإمام ابن ياسين شوكة وقوة ومنعة استطاع أن يقضي على قوة الشر في قبائل لمتونة وجذولة وغيرها، وأن يوحدها على منهج الإسلام وعقيدة الرحمٰن ودعوة الإيمان.

7 - كانت تربية عبد الله بن ياسين لأتباعه رفيعة المستوى غرست في نفوسهم حب الشهادة، والتلذذ بمتاعب الجهاد والحرص على هداية الناس واختار لأتباعه اسماً يدل على الرابطة السامية التي ربطت هذه الجموع التي كانت متناحرة وأصبحت متآخية متعاونة ألا هو «المرابطون».

8 - أصبح فقهاء المغرب الأقصى والأحرار المتطلعون لتحكيم شرع الله في مدنهم يتصلون بالمرابطين، ويطلبون منهم مساعدتهم لإزالة الظلم الواقع عليهم من حكام زناتة، وبالفعل لبَّى المرابطون هذا النداء وتحركت جيوشهم القوية لإزالة المظالم ونشر العدل، والقضاء على دولة برغواطة الملحدة، وعلى بقايا الروافض، وأصبحت جبهاتهم متعددة نحو السنغال والنيجر ونحو فاس ومكناس وطنجة، وحققوا انتصارات رفيعة ودخلت أمم من الزنوج والوثنيين في الإسلام.

9 - استمر الإمام ابن ياسين يقود معارك التوحيد للمغرب الأقصى من أجل إقامة دولة سنية، واستشهد في تلك المعارك بعد أن ترك خلفه رجالاً آمنوا بسمو دعوتهم وقدسية فكرتهم وروعة أهدافهم.

10 - تولى قيادة المرابطين بعده الإمام أبو بكر بن عمر الذي تميز بزهده وعبادته وبساطته وحبه للجهاد والاستشهاد، وكان إذا ركب للجهاد ركب معه 500 ألف مقاتل من المرابطين، فوضع هذا القائد الخطوط الأولى لدولة المرابطين وأناب ابن عمه على المغرب، وتحرك بجيش عظيم نحو الصحارى القاحلة لنشر الإسلام في النيجر والسنغال ومالي، وأبلى بلاءً عظيماً، ودخلت أمم وشعوب وقبائل لا يحصيها إلا خالقها في دين ودعوة الإسلام الخالدة، وعندما رجع إلى ابن عمه الأمير يوسف بن تاشفين في المغرب وجده قد حقق فتوحات عظيمة، ووحد البلاد وقضى على الفساد، وأزال الظلم ونشر العدل، فتنازل عن الإمارة لابن عمه يوسف بعد أن أوصاه بتقوى الله وذكره قدومه على الله، ثم ودعه،

ودخل في الصحراء الكبرى بجيشه الداعي إلى رضوان الله وصراطه المستقيم وأكرمه الله بالشهادة في قلب الصحراء الكبرى.

11 - تولى أمر المرابطين الأمير يوسف بن تاشفين فنظم المدن وأرسى نظم الحكم وخطط للدولة المرابطية، فشرع في إنشاء دواوينها ومجالسها وإداراتها وجيوشها ووضع الأمراء والفقهاء والقضاة على المدن والقرى، وأشرف على تنفيذ أحكام الله، وأثبتت الأيام والحروب والمحن التي مر بها على أنه قائد عسكري وسياسي من الطراز الأول وأحبه المرابطون والتفوا حوله وتطايرت الركبان في نشر سيرته وعدله وأحبه المسلمون.

12 - أصاب المسلمين في الأندلس أضرار جسيمة بسبب خنوع ملوك الطوائف للنصارى وضعفهم في الحكم، مما عرض ممالك الأندلس لأطماع النصارى الحاقدين الذين جاسوا خلال الديار في الأندلس يقتلون ويذبحون ويسبون وأصبحت ممالك الأندلس الإسلامية تتساقط في أيديهم مدينة بعد مدينة وقرية إثر قرية، وحصن خلف حصن، وركب المسلمين فزع عظيم فاضطر ملوك الطوائف أن يطلبوا الغوث والنصر من الأمير الرباني والقائد الميداني يوسف بن تاشفين، وكان قرار حكام الأندلس في استدعاء يوسف حكيماً، وتبناه الملك المعتمد بن عبّاد بكل ما يملك من حجة وقوة، ولما قالوا للمعتمد سيضم الأمير يوسف إليه الأندلس، فقال قولته المشهورة التي أصبحت مثلاً رائعاً على مر العصور وكر الدهور تتعلم منه الأجيال الوفاء لدينها والولاء لعقيدتها حيث قال: «رعي الإبل ولا رعي الخنازير»، وقال المعتمد لابنه: إنّ استدعاء الأمير يوسف أمر يرضي الله تعالى، ولن أكون أبداً سبباً في ضياع ديار المسلمين.

13 - استحباب الأمير يوسف لدعوة إخوانه في العقيدة وعرض الأمر على أهل شورته وتحصل على موافقة العلماء والفقهاء ورجال الدولة المرابطية، وحرك كتائب المرابطين بفرسانها الشجعان وجنودها الأبطال وعبر المضيق، وقاد الأمير يوسف كتائب المسلمين في الأندلس، ووضع مع أركان جيشه خطة محكمة للقضاء على جيش ألفونسو النصراني وسطر المرابطون في تاريخ أمتنا ملاحم العقيدة والفداء في معركة الزلاقة، وانتصر المسلمون وانهزم النصارى وحفظ الله الإسلام في الأندلس لقرون بعد تلك المعركة التاريخية، وبعد هذا النصر الرائع والنفيس الذي حققه المرابطون ورفعوا به راية الإسلام في سماء الأندلس رجع الأمير

يوسف إلى المغرب وترك الغنائم لملوك الأندلس الذين اختلفوا بعد ذلك وكادوا أن يضيعوا الإسلام من جديد في تلك الديار فطلب فقهاء الأندلس من الأمير يوسف ضم الأندلس لحكم المرابطين، وشجعه علماء وفقهاء المغرب وتحصل على فتاوى من علماء المشرق من أمثال أبي بكر الطرطوشي في مصر، وأبي حامد الغزالي في العراق.

14 - استطاع يوسف بن تاشفين أن يفتح مدن الأندلس، وأن يضم الممالك إلى دولة المرابطين، وأسر بعض ملوك الأندلس الذين ثبت تعاونهم مع النصارى ووضعهم في المغرب إلى أن توفاهم الله، وبذلك قضى على مهزلة ملوك الطوائف.

15 - حاول المستشرقون أن يلطخوا دولة المرابطين وخصوصاً الأمير يوسف إلا أنهم اصطدموا بحقائق التاريخ الناصعة التي دلت على عظمة الأمير يوسف ودولته الميمونة، وحاول المستشرق رينهارت دوزي أن يشوه دولة المرابطين ويصفها بالبربرية والتخلف، ويصف السلطان علي بن يوسف بالرجل التافه، ويمدح ملوك الطوائف في الأندلس الذين تحالفوا مع النصارى للقضاء على الإسلام والمسلمين، وشنّ حملة مسعورة على جهاد المرابطين الذين حققوا وحدة صفوف المسلمين، وهزموا أعداءهم النصارى، وخلصوا المسلمين من هؤلاء الملوك الضعفاء، لقد شتم دوزي المستشرق الأمير يوسف ووصفه هو وابنه بأنهم تافهون، وأنا لا أستغرب من دوزي المستشرق أن يفقد توازنه ويخرج عن نهج المؤرخين النزيه، لقد كان المستشرق دوزي ملحداً زنديقاً عدواً للإسلام والمسلمين، كيف تريده أن يتحمل شعارات المرابطين الدالة على سمو عقيدتهم وطهارة منهجهم، وكأني بالمستشرق دوزي وهو يقلب الدينار المرابطي والمكتوب على وجهيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85] وقد اشتاط غضباً وفقد عقله وغرق في كفره، فأباح لنفسه الكذب والافتراء والزور ليهدىء من روعه وانفعاله، كيف يكون تافهاً من يوحد المغرب الأقصى ويضم إليه الأندلس ويقضي على ملوك الطوائف؟ لقد وصف المؤرخون المنصفون الأمير يوسف بأنه كان حازماً ضابطاً للنفس ماضي العزيمة عالي الهمة تحركه عقيدته الإسلامية وشريعته الربانية، أما دولة المرابطين فقد أثبت التاريخ أنها دولة حضارة وعلم وثقافة، أما ما قام به أعداؤهم في وصفها بالتخلف الحضاري والتعصب المذهبي

فهو قول باطل لا تسعفه الأدلة عارٍ من الحقائق، وما كان دافع خصومهم من الموحدين والأندلسيين الذي حملوا عليهم حملة ظالمة إلا من باب التعصب الديني أو المذهبي، أو كراهية سياسية أو قومية حاولوا النيل من دولة المرابطين السنية، وتابع أولئك الأقوام الذين مضوا بعض المستشرقين المحدثين أمثال المتعالم الحاقد الهولندي راينهارت دوزي وتابعة على ذلك نفر من المعاصرين أمثال أرشيبالد لويس في كتابه «القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط».

16 - يعتبر ضم الأندلس إلى دولة المرابطين من أعظم أعمال الأمير يوسف بن تاشفين الجهادية.

17 - كانت نظرة دولة المرابطين إلى الخلافة الإسلامية العباسية في بغداد صائبة صحيحة لكونها منبثقة من منهج أهل السنة والجماعة، ولذلك بايعوا الخليفة العباسي ورفعوا أعلامه وشعاره، ودعوا له على منابرهم.

18 - كانت علاقة الدولة المرابطية بالخلافة العبيدية في مصر عدائية لاختلاف العقائد والمناهج والمذاهب، ولذلك حرص المرابطون على اقتلاع بقايا الرفض والتشيع من دولتهم.

19 - كانت علاقة دولة المرابطين بالدولة الزيرية الصنهاجية ذات أبعاد استراتيجية تعاونية، بسبب وحدة المنهج والمعتقد والمذهب والقرابة التي بين زعماء الدولتين، ولذلك نجد تنسيقاً في البحر المتوسط للإغارة على أساطيل النصارى، ونجد دعماً اقتصادياً من دولة تميم بن المعز الزيري لدولة المرابطين عندما خاضوا جهادهم المقدس ضد النصارى.

20 - أما علاقة بني حماد بالمرابطين فهي محفوفة بالتخوف من الطرفين، حيث نجد أن لبني حماد أطماعاً توسعية تستهدف أطرافاً من دولة المرابطين كما نجد أن المعارضين الأندلسيين للمرابطين استقروا في حماية بني حماد، إلا أن سياسة الأمير يوسف مع بني حماد تميزت بالحكمة وبعد النظر والابتعاد عن الصدام مراعياً في ذلك أموراً عديدة منها قرابتهم واتحادهم في المنهج والمعتقد المذهب.

21 - كانت علاقة المرابطين مع ملوك النصارى عدائية، أما مع أهل الذمة فكانت محكومة بحكم الشريعة فيهم، فقامت على العدل والإنصاف.

22 - كانت الأندلس مليئة بالشعراء والأدباء والفقهاء، إلا أن الولاء والبراء ضاع مفهومه عند كثير من ملوكهم.

23 - استطاع الأندلسيون أن يثروا دولة المرابطين بالشعراء والأدباء، وأن يأثروا في كثير من جوانبها المعمارية والفنية والثقافية.

24 - الحضارة الإسلامية في زمن دولة المرابطين امتزجت بالعناصر الإفريقية والعربية والأندلسية مما جعلها متميزة في كثير من جوانبها الحضارية.

25 - كان في زمن المرابطين علماء وفقهاء لا زال أثرهم في الأمة سارياً إلى يومنا هذا من أمثال الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي، والوليد بن رشد، والقاضي عياض، والمحدث الفقيه أبو علي الصدفي، وغيرهم كثير.

26 - كان النظام العسكري والقضائي والإداري والمالي مواكباً لعصره، منضبطاً بأحكام الإسلام في دولة المرابطين.

27 - استطاع أسطول المرابطين أن يحقق الأمن والأمان لمسلمي الشمال الإفريقي، وأن يكبّد النصارى في جنوب البحر المتوسط خسائر هائلة.

28 - إن اهتمام الأمير علي بن يوسف بالزهد والعبادة وتسليمه لأمور الملك في آخر أيامه للأمراء خطأ عظيم كلف دولة المرابطين متاعب عظيمة، ومن أعظم الأخطاء التي وقع فيها الأمير علي عدم أخذه بنصيحة وزيره الفقيه مالك بن وهيب الإشبيلي الذي أشار على الأمير علي بقتل محمد بن تومرت الكذّاب زعيم الموحدين وقال للأمير: «هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته، ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، وإن وقع في بلاده المصامدة ثار علينا منه شر كبير».

إلا أن الأمير علي بن يوسف رفض قتله، فلما يئس مما أراده من قتل ابن تومرت، أشار عليه بسجنه حتى يموت، فقال أمير المسلمين: نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق؟ وهل السجن إلا أخو القتل، ولكن نأمره يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء»[1].

29 - إن من أعظم أسباب سقوط الدول الذنوب والمعاصي وارتكاب الكبائر والمظالم.

30 - في زمن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كانت مقومات النصر متجسدة في دولته، ومن أبين وأهم ما ظهر لي في هذا البحث من مقومات النصر من أهمها، **أولاً**: الإعداد قبل المعركة، **ثانياً**: معرفة قوة العدو وإمكاناته، التوجيه المعنوي،

(1) موسوعة المغرب العربي، (ج2/ 188، 289).

التعمية على العدو، والتحام القيادة مع الشعب، متانة العقيدة ووضوحها، القيادة المثلى، عدم القتال لدنيا، الحكمة في اتخاذ القرارات، صفات المجاهدين الخلقية والروحية، مما مهدت لهم طريق النصر.

31 - من أخطر ما تمر به الدول والحركات عدم قدرتها على توريث أفكارها ومناهجها وعقيدتها للجيل الذي بعدها.

32 - إن الاستهانة بالخصوم تؤدي إلى انهزام المستهزىء وانتصار المستهزأ به.

33 - كان لنفوذ المرابطين في بلاد الأندلس أثر واضح المعالم في الحروب الصليبية في الشام، إذ أن دخولهم الأندلس منع الممالك الصليبية التي كانت تتجه إلى بلاد الشام، بل إن ظهورهم في تلك المرحلة التاريخية في المغرب والأندلس قد حال دون اشتراك القوى الأوروبية بكل ثقلها في الحروب الصليبية في الشرق، وبذلك قدم المرابطون خدمات عظيمة وجليلة للشرق الإسلامي[1].

34 - كانت حضارة المرابطين في الأندلس والمغرب مقصداً لأبناء العلم من الأوروبيين الذين توالوا وتوافدوا على الأندلس لتلقي العلوم والصناعات، بل إن بعض ملوكهم أرسل بعثات لدراسة نظام الدولة والحكم وآداب السلوك، وكل ما يؤدي إلى سير الأمور في الدولة والسير بها في مضمار الحضارة والتقدم.

35 - تركت دولة المرابطين التي لم يصل عمرها الزمني إلى مائة عام وهي فترة قصيرة في عمر الدول آثاراً واضحة جلية في جميع المجالات، بل إن تلك المآثر الحضارية تعدت حدود دولة المرابطين إلى أرجاء أخرى من العالم الإسلامي.

36 - إن ظهور دولة الموحدين وانقضاضها بعنف على دولة المرابطين تسبب في ضعف النواحي الحضارية والثقافية والسياسية والعسكرية عند المغاربة عموماً، وفتحت مجالاً لملوك النصارى للقضاء على الإسلام في الأندلس فيما بعد.

37 - إن للأفراد آجالاً محدودة، وكذلك لكل دولة أجل محدود، فإذا جاء أجلها لا تستأخر ولا تستقدم.

38 - سنة الله جارية في إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء، ونزع الملك ممن يشاء وإعطائه لمن يشاء.

---

(1) موسوعة المغرب العربي (ج2/ 188 - 189).

# القِسمُ الثَّاني

obeikandl.com